مُقَدِّمَة

obeikandl.com

obeikandl.com

جاء المهاجرون اليهود إلى أرض فلسطين مدعين لأنفسهم حقوقاً تاريخية على هذه الأرض، محل النزاع تارة، وحقوقاً دينية تارة أخرى، وهي ادعاءات غرستها الحركة الصهيونية في نفوس هؤلاء اليهود، حتى يسهل التعامل في دفعهم تجاه فلسطين، التي وصفتها الصهيونية بأنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وروج الصهيونيون الأوائل هذا الشعار وتشدقوا به، رغبة منهم في تحقيق أهداف الصهيونية على أرض الواقع بدفع يهود الشتات ناحية فلسطين (الأرض التي تدر لبناً وعسلاً)، وما أن وطأت أقدام اليهود أرض فلسطين حتى فوجئوا بجموع الفلسطينيين أمام أعينهم، فتجرعوا وقتها أولى خداعات الصهيونية، لا سيما وقد فطن الفلسطينيون لمخططات التهويد والاستعمار، واتخذت العلاقات الفلسطينية اليهودية جولات عديدة من الصراع منذ ما قبل قيام الدولة وحتى وقتنا هذا.

ومن هنا أصبح الفلسطيني في نظر (الآخر) الصهيوني، ثم بعد ذلك (الآخر) الإسرائيلي، هو بمثابة الوجه الثاني الذي يمكن أن يرى من خلاله مدى صحته أو بطلان ادعاءاته، بمعنى، أن المهاجرين الصهاينة نظروا للصراع مع الفلسطينيين على أنه رهان على نجاح الأيديولوجية الصهيونية في تحقيق أحلامها وآمالها على أرض فلسطين، بادعاء الحق الديني تارة، والحق التاريخي تارة أخرى. وأخذ الصراع مع (الآخر) ـ سواء أكان فلسطينياً أم إسرائيلياً ـ اتجاهات عديدة انصبت جميعها في آلية إدارة الصراع على كافة المستويات الإدراكية والمعرفية.

وكان الأدب العبري قبل قيام الدولة والأدب الإسرائيلي بعد قيامها، هو المتنفس الطبيعي الذي حاول المفكرون والأدباء اليهود من خلاله، أن يعبروا عن مشاعرهم ومشاعر إخوانهم تجاه آليات الصراع مع الآخر (الفلسطيني)، وانقسموا على أنفسهم إلى فريقين:

(١) أدباء مجندون لخدمة الحركة الصهيونية وتبرير كافة المطامع الصهيونية في الاستيلاء على الأرض، وفى التعامل بمنتهى العنف والقسوة مع الفلسطينيين.

(٢) أدباء مناهضون للحركة الصهيونية التي خدعت جموع اليهود وجاءت بهم إلى هذه الأرض ليدورون في فلك هذا الصراع الذي لم ينته بعد. وقد وصف هؤلاء المفكرون الإسرائيليون؛ أمثال الأديب الإسرائيلي مئير شاليف ادعاءات الصهيونية بالحق الديني والتاريخي لليهود في فلسطين بالأساطير، ووضعوها في قفص الاتهام وقالوا أنها السبب في

كل المحن التي وقعت فيها دولة إسرائيل، وكانت الصهيونية في نظرهم هي السبب الرئيسي لكل الحروب التي خاضتها إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨، ومروراً بالانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية، وحتى حرب لبنان ٢٠٠٦. وهو الأمر الذي جعل بعض المفكرين الإسرائيليين، أمثال الأديب الإسرائيلي الشهير أبراهام يهوشواع، ينادون بالانفصال عن هذه الأيديولوجية والبحث عن بديل جديد يتوافق مع الواقع المعيشي لدولة إسرائيل، رغبة منهم في العيش كشعب مثل سائر الشعوب وكبشر ينعم بالأمن والراحة، بعد أن سئموا الحروب والدماء وفقد الأعزاء في مواجهة الحروب والانتفاضة.

وبطبيعة الحال، انعكست حالات الصراع في عدد من الأعمال الأدبية لبعض الأدباء الإسرائيليين، الذين شعروا بأن وجودهم على هذه الأرض يتناقض مع جذرية الوجود العربي الفلسطيني. واختلفت معالجتهم للصراع باختلاف الظروف والأحداث بين الطرفين.

ويمكننا القول، بأن معالجة الصراع مع "الآخر" (الإسرائيلي)، على هذا النحو، قد سار في عدة اتجاهات عبر مسار تطور الأدب العبري الإسرائيلي، اختلفت في فتراتها الزمنية على ضوء الحروب التي خاضتها إسرائيل، والتي كانت بمثابة فواصل زمنية قاطعة في مراحل هذا الأدب وفى تاريخ هذه الدولة؛ إلا أن الانتفاضة الفلسطينية – الأولى أو الثانية- كانت أشد فتكاً من هذه الحروب، لاسيما وقد تحولت إلى شبح يطارد "الآخر" (الإسرائيلي)، في كل مكان دون أن يعرف وجهته أو زمانه أو مكانه أو ماذا سيفعل به.

أثر انتفاضة الأقصى في الآخر (الإسرائيلي):

لم تكن زيارة شارون لساحة المسجد الأقصى، هي وحدها التي أشعلت لهيب انتفاضة الأقصى، بل ثمة تراكمات نفسية وحالة من اليأس والإحباط تغلغلت في نفوس الفلسطينيين من جراء المماطلات الإسرائيلية في تنفيذ اتفاقيات أوسلو وغيرها، علاوة على الممارسات الوحشية لجيش الاحتلال الإسرائيلي تجاه الشعب الفلسطيني. إن خيبة الأمل والانكسار وضياع الحقوق، كل هذا كان كافيا لانطلاق شرارة الانتفاضة الفلسطينية التي كان لها أثرها الكبير في النفسية اليهودية الإسرائيلية علي كل المستويات الاجتماعية والنفسية والسياسية.

ولأن الأدب، كما يقولون، مرآة للمجتمع، يعكس ما يعتمل في النفس البشرية من مشاعر وأحاسيس، ويرصد التغيرات الاجتماعية والبشرية، فهكذا كان الأدب العبري المعاصر راصدا لهذه الظاهرة الفلسطينية الفريدة في مناهضة الاحتلال ومقاومته.

ولم تكن الأديبة الإسرائيلية المعاصرة "أورلى كاستل بلوم" (١٩٦٠ ـ) في منأى عما يحيط بها وبمجتمعها من هلع ورعب وفزع، راح يعيشه الآخر (الإسرائيلي) منذ بدء الانتفاضة الفلسطينية (انتفاضة الأقصى)، فكتبت روايتها "أشلاء" (٢٠٠٢) لتعبر، كما تقول، عن فزع أم تحاول الحفاظ علي حياة أبناءها، فحولت بيتها إلى ساحة من التدريبات، أخذت تعلم فيها أبناءها كيف ينبطحون أرضا في حالة حدوث انفجار، وكيف لا يرتادون الأماكن المزدحمة، فأصبحت دور السينما والمطاعم وأماكن الترفيه أماكن محظورة، من يذهب إليها فهو أشبه بمن يغامر بحياته. . وقد انعكست كل هذه المشاعر في روايتها "أشلاء" التي بينت لنا الأثر العظيم للانتفاضة الفلسطينية في كل المناحي الحياتية للإسرائيليين علي المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

فعلي المستوي النفسي ، جاءت معظم شخصيات الرواية وهي في حالة من الرعب والفزع والارتباك إلى حد اليأس، من جراء العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون، حيث انتشرت الأعمال الفدائية، وارتمي الفلسطينيون في أحضان الموت، في الأتوبيسات، ومحطات القطار، والمقاهي والتجمعات التجارية (المول) وصالات الديسكو، وانتشرت الكمائن على الطرق في الضفة الغربية وقطاع غزة. لقد زرع الفلسطينيون الموت والدمار في كل مكان "(الرواية، ص ١٢ – ١٣). "لقد امتلأت تلك البقعة من هذا الكون بخوف عظيم "(الرواية، ص ١٣ ـ ١٤).

إن "برجسون" ، أحد أبطال الرواية، يري الموت في إسرائيل "وقد أحاطها من كل جانب، فهو يري أن إسرائيل مقبرة كبيرة تقبع فيها مستوطنات عديدة، ما زال يعيش بها أناس سوف يرون الموت قريبا. فكل يوم قتلي جدد، وجنازات، وعمليات استشهادية، وحوادث إطلاق نار، وصواريخ، وأحزمة ناسفة، دون أن يكون هناك حلا" (الرواية، ص ٢١٩).

وهكذا، جعلت الانتفاضة الموت شيئا عاديا في المجتمع الإسرائيلي (الرواية ص ٢٦٠)، لاسيما وقد عكست الرواية الوضع النفسي السئ الذي يعيشه هذا المجتمع، فها هي إحدى شخصيات الرواية تسمي أبناءها "عوز" ، و"أوشر" و"حيروت" ، وهى كلمات عبرية تعنى "الملاذ" و"السعادة" و"الحرية" ؛ وكأنها تبحث عن هذه الأشياء دون جدوى (الرواية، ص ٢٢٧).

وعلي المستوي الاجتماعي والاقتصادي ، فقد أرهقت انتفاضة الأقصى الميزانية العامة لدولة إسرائيل، من جراء المخصصات المالية الجسيمة التي اقتطعتها الحكومة الإسرائيلية من بعض الوزارات لصالح القطاع الأمني في إسرائيل. وقد بينت لنا "كاستل

بلوم" في روايتها، كيف أن الوضع الأمني أخذ يلتهم الموارد الاجتماعية لدولة إسرائيل، فانتشر الفقر وزاد عدد الإسرائيليين الذين يعيشون من تحت خط الفقر في ظل الانتفاضة الفلسطينية المستمرة، "فقد نشر التقرير السنوي لمعدل الفقر في إسرائيل في شتي وسائل الإعلام، وأظهر أعداداً ضخمة من الأسر التي تعيش من تحت خط الفقر، "إنها أسر تعيش بالكاد" (الرواية، ص ١٥). كما تأثرت السياحة في إسرائيل بصورة ملحوظة من جراء العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون، حيث توقفت الرحلات الجوية إلى إسرائيل، وأصبحت الطائرات شبه فارغة، (الرواية، ص ١٦٧).

وعلي المستوي السياسي، أظهرت هذه الرواية مدى التخبط السياسي الذي يعيشه السياسيون الإسرائيليون تجاه هذا التصعيد الخطير ومحاولاتهم البائسة لتهدئة الجمهور، وضبط النفس تارة والاندفاع نحو العنف تارة أخرى (الرواية، ص ١٣)، حيث تسخر "كاستل بلوم"، في الرواية، من رئيس دولة إسرائيل، "فمنذ أن انتخب (رؤفين تقوع) رئيسا لدولة إسرائيل وهو يتجول بين جنازة وأخري لقتلى الانتفاضة، ويتنقل أيضا من مستشفي إلى آخر لزيارة الجرحى والمصابين" (الرواية، ص٧٩)، وكأن دور رئيس الدولة هو حضور الجنازات وزيارة جرحى الانتفاضة من الإسرائيليين. وقد انتقل هذا الارتباك السياسي بدوره إلى القادة العسكريين الإسرائيليين، فرجال الأمن يشكون حتى فيمن يعبث بحقيبته (الرواية، ص ٩٠). لقد جعلت الانتفاضة الفلسطينية بعض الإسرائيليين يصفون دولتهم، في هذه الرواية، بأنها "دولة قذرة" (الرواية ص ١٠٣)، كما وضعت الصهيونية في قفص الاتهام ونسب إليها كل المحن التي وقعت فيها دولة إسرائيل.

ويقع هذا الكتاب في فصلين، يحمل عنوان الفصل الأول منه (مأزق الصهيونية في الحروب الإسرائيلية)، فقد ارتأيت أن أضع أمام القارئ؛ في هذا الفصل؛ قصة الصهيونية منذ البداية وأهدافها، ونجاحاتها وإخفاقاتها في نظر المفكرين الإسرائيليين، وكيف تحولت الحروب الإسرائيلية إلى جرائم ارتكبت باسم الصهيونية، الأمر الذي جعل المجتمع الإسرائيلي يضعها في قفص الاتهام، وينظر إليها على أنها السبب في كل المحن التي وقعت فيها دولة إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨ وحتى انتفاضة الأقصى.

يتناول هذا الفصل موقف المفكرين الإسرائيليين من الصهيونية بعد كل حرب خاضتها دولة إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨، وحرب يونيو ١٩٦٧، وحرب أكتوبر ١٩٧٣، وحربي لبنان ١٩٨٢ و ٢٠٠٦، ووصولاً إلى انتفاضة الأقصى، وهى القشة التي قسمت ظهر البعير فيما يتعلق بالموقف من الصهيونية، لأنها كانت أشد فتكاً من كل الحروب التي خاضتها إسرائيل، لاسيما وقد نظر إليها المجتمع الإسرائيلي على أنها شبح أخذ يطارد الإسرائيليين

في كل مكان ويؤرق المسئولين في مضاجعهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الفصل كان ضمن مباحث رسالة الدكتوراه الخاصة بي والتي تحمل عنوان (اتجاهات نقد الصهيونية في الرواية العبرية المعاصرة خلال الثمانينيات والتسعينيات)، ولكنني زدت عليه طبقاً لمجريات الأحداث وتطورات الموقف فيما يتعلق بحربي لبنان وانتفاضة الأقصى والموقف من الصهيونية.

أما الفصل الثاني في هذا الكتاب فيحمل عنوان (أثر الانتفاضة الفلسطينية في الآخر "الإسرائيلي"، دراسة تحليلية لرواية "أشلاء" للأديبة الإسرائيلية أورلى كاستل بلوم). وفيه يتم التنقيب بالبحث والدراسة في أثر الانتفاضة الفلسطينية في كل المناحي الحياتية للإسرائيليين علي المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، من خلال عمل أدبي إسرائيلي، كتبته أديبة إسرائيلية تأثرت بشدة بأحداث الانتفاضة؛ وعكست في عملها هذا مدى تأثر المجتمع الإسرائيلي بالعمليات التي يقوم بها الناشطون الفلسطينيون على كل المستويات؛ حتى اتهم بعض النقاد الإسرائيليين كاتبة هذا العمل بالانهزامية والتنصل من المسئولية، لأنها كشفت عن تصدع المجتمع الإسرائيلي وانهياره في مواجهة الانتفاضة، حيث تعد هذه الرواية تأريخاً واقعياً لحالة المجتمع الإسرائيلي إبان انتفاضة الأقصى، ويمكن اعتبارها مرجعًا تاريخيًا يعتمد عليه في وصف المجتمع الإسرائيلي إبان فترة الانتفاضة.

وزيل هذا الكتاب بملحق إحصائي يحتوى على حقائق وأرقام فيما يتعلق بالانتهاكات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني والعمليات الاستشهادية وأحداث الانتفاضة بين الجانبين، ورد الفعل الإسرائيلي من هدم للمنازل والقيام بعمليات اغتيال للناشطين الفلسطينيين.

د. عمرو عبد العلي علام

القاهرة فى يوليه ٢٠٠٧

E.mail: dr_amrelaly@yahoo.com
amrelaly@hotmail.com